## المحاضرة التاسعة: النظريات الطبيعية في مجال دراسة السكان

**تمهيـــد:** شـكل الإخفـاق الـذي صـاحب النظريـة المالتوسـية، و عجزهـا عـن إدراك و تفسـير النمـو السكاني الحاصـل بشكل صـحيح و كامـل، دافعـا قويـا لظهـور نظريـات جديـدة تسـعى لتفسـير الواقـع الجديـد للمشـكلة السـكانية، تشـابهت مـع سـابقتها فـي إتباعهـا لـنفس الأسـلوب الـذي وضـعه مـالتوس، و اتسمت عنهـا فـي كونهـا أكثـر تفـاؤلا منهـا، مسـتمدة ذلـك مـن الواقـع الـذي نشـأت فيـه و الـذي كـان يشـهد تقـدما كبيـرا فـي مجـالي الزراعـة و الصـناعة، و اللتّـان تسـبب فيهمـا اتسـاع نطـاق الثـورة الصـناعية، و هـي النظريـات التّـي يمكـن تشـطيرها عمومـا لـثلاث اتجاهـات كبـرى، أولهـا و تسـمى **بالنظريـات الطبيعيـة** أو **البيولوجيـة**، و تقـوم أساسـا علـى الاعتقـاد بـأنّ مـا يـتحكم فـي وتيـرة النمـو السكاني، هـو طبيعـة الإنسـان بوجـه عـام و طبيعـة العـالم الـذي يعـيش فيـه، و طبقـا لهـذا التصـور، فـإنّ سـيطرة الإنسـان علـى نمـوه يعتبـر أمـرا سـطحيا للغايـة، و هـو الاتجـاه الـذي سـاد فـي كتابـات كل من: هربرت سبنسر، كوراد جيني، سادلر و آخرون غيرهم.

**1- نظريـــة دبلـــداي(1790-1870):** يـذهب دبلـداي Doubleday فـي كتابـه القـانون الحقيقـي للسـكان المنشـور فـي سـنة 1837، إلـى أنّ زيـادة التغذيـة تـؤدي إلـى تنـاقص القـدرة الإنجابيـة للسكان، مـا تعنـي أنّ هنـاك علاقـة عكسـية تـربط مـا بـين المـوارد الغذائيـة و الزيـادة السـكانية، و أنّـه كلنـا تحسـنت مـوارد الغـذاء أبطـات الزيـادة السـكانية. كمـا أنّ تكـاثر السـكان يكـون أكبـر لـدى الطبقـات الاجتماعيـة الفقيـرة، و يتنـاقص بـين الأثريـاء فـي حـين يحـافظ علـى حجمـه فيمـا يتعلـق بالطبقـات المتوسـطة. و علـى الـرغم مـن الـزواج الـذي لاقتـه هـذه النظريـة حتّـى عهـد قريـب، حتّـى أنّ واحـد مثـل " جوزيـه دي كاسـترو " قـد وجـد أنّ قلـة البـروتين فـي الغـذاء تـؤدي إلـى زيـادة النسـل، الأمـر الـذي يترتـب عليـه أنّـه إذا أردنـا أن نقلـل مـن زيـادة السـكان فـي بلـد مـا فيجـب أن تزيـد نسـبة البروتينـات فـي الغـذاء لسـكان ذلـك البلـد، إلاّ أنّهـا انطـوت هـي الآخـر علـى مجموعـة مـن نقـاط الضعف، و التّي منها نذكر:

**أ•** لم يفرق دبلداي بين القدرة على الإنجاب و بين النمو الفعلي للسكان[1].

1 - طارق السيد، علم اجتماع السكان، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2008، ص83.

ب• إنّ أشد النّاي قدرة على التناسل أشدهم بؤسا، و أنّ قوة الإنجاب تميل إلى التناقص الذي ينجم عن كثرة الغذاء، أمران لا تسندهما أية حقائق علمية و لا يمكن الجزم بهما بالمطلق، و هو ما يجعلهما غير واقعيان[2].

**2- نظرية سادلر(1780-1835):** يعتبر " سادلر" مصلحا اجتماعيا، كما كان من رجال الاقتصاد المعاصرين لمالتوس، و الذي أبان عن اهتمام جلي بالمسألة السكانية ترجمه في كتابه الصادر في عام 1830 و المسمى بقانون السكان، و الذي ذهب فيه إلى التسليم بأنّ القانون الطبيعي المتحكم في عملية التناسل، يختلف جذريا عن القانون الذي أخذ به مالتوس، و أنّ الميل البشري إلى الزيادة يتناقص كلما زاد الحجم السكاني، و هو ما يعني أنّ التكاثر عملية تتحكم في نفسها بنفسها، و أنّ العوامل البيولوجية تتدخل في حماية المجتمع الإنساني من التضخم، و هي الفكرة التّي يصدقه قوله: " أنّ قدرة الإنسان على التناسل تتناسب عكسيا مع عدده "[3] .....كما يعتقد سادلر أنّ الزيادة في السكان لا تتأثر بالبؤس و الرذيلة كما اعتقد مالتوس، و إنّما تتأثر بالسعادة و الغنى بين أفراد المجتمع، فالعمل على الحرمان من الترف يشجع على التناسل و ذلك بتنمية القدرة عليه، و أنّه في كل واحدة من مراحل الرقي الإنساني، و تحول المجتمعات من مراحل الصيد و الزراعة، إلى الصناعة و التكنولوجيا الحديثة ينقص تدريجيا عدد السكان، إلى أن يقف عند نقطة محدد يبلغ فيها عدد كبير من السكان درجات عالية من الرفاهية[4]. و رغم التفاؤلية التّي طبعت أفكاره، إلاّ أنّها مع ذلك تخلو من العيوب مما عرضها لوابل من الانتقادات، أبرزها:

**أ•** إهمالها لدراسة كل الحقائق المعروفة عن نمو السكان، من ذلك مثلا أنّ الصينيين و الهنود....يعدون من أكبر الشعوب مقدرة على التناسل، و لكنهم يعانون في الوقت عينه كثرة السكان الخطيرة.

---

2 - فراس البياتي، مورفولوجيا السكان، موضوعات في الديمغرافيا، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009، ص61.

3 - خليل عبد الهادي البدو، علم الاجتماع السكاني، دار الحامد للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2009، ص27.

4 - فراس البياتي، مرجع سابق، ص60.

**ب•** لـم يفـرق بـين القـدرة علـى الإنجـاب و النمـو الفعلـي للسـكان، إذ أنّ القـدرة علـى الإنجـاب قـد تكـون كبيـرة، و مـع ذلـك قـد يكـون النمـو الفعلـي للسـكان قلـيلا، بسـبب كثـرة حـالات الوفيـات علـى سبيل المثال[5].

**3- هربـــرت سبنســـر(1850-1903):** فيلسـوف و مفكـر انجليـزي، اشـتهر بفكـره الاجتمـاعي المرتكـز علـى التفسـير البيولـوجي، كمـا هـو واضـحا فـي مؤلفـه الموسـوم باسـم الأسـس البيولوجيـة، و الـذي ضـمن إيـاه آرائـه ضـمن فلسـفة التركيـب و اتجاهـات السـكان التّـي وضـعها عـام 1854، حيـث يـرى سبنسـر Spencer أنّ هنـاك تعـارض قـائم بـين الفرديـة و التكـوين، أي بـين اهتمـام الإنسـان بنفسـه و قدرتـه علـى التناسـل، حيـث أنّ تعقـد الحيـاة الاجتماعيـة و التنظـيم الاجتمـاعي، يتطلبـان مـن الإنسـان أن يبـذل جهـود إضـافية للمحافظـة علـى حياتـه الذاتيـة، و أن ذلـك يسـتوجب اسـتهلاك نسـبة كبيـرة مـن الطاقـة الفسـيولوجية المتيسـرة للجـنس، فـي الأنشـطة المرتبطـة بـالتطور الشخصـي و التعبيـر، و مـن ثمـة يتبقـى لـه قـدر ضـئيل مـن هـذه الطاقـة مـن أجـل مصـالح و أنشـطة التناسـل، و ذلـك مـا يـؤدي آليـا إلـى خفـض قدرتـه علـى التوالـد، فكلمـا زاد الجهـد الـذي يبذلـه الإنسـان لضـمان تقدمـه الشخصـي فـي بعـض الميـادين: كالعمـل، التعلـيم و غيرهمـا، تراجـع اهتمامـه بالتكـاثر لا سـيما لـدى النسـاء، لأنّ ذلـك يتطلـب مـنهن وقتـا و طاقـة و يصـيبهن بالضـعف و هـذا يـؤدي إلـى التقليـل مـن الزيـادة السـكانية، لأنّـه يصـاحب التطـور الاجتمـاعي الحاصـل الـذي تظهـر فيـه النزعـة الفرديـة بشـكل واضـح. كمـا يـذهب سبنسـر إلـى أنّ الزيـادة الغذائيـة تـؤدي إلـى زيـادة الإقبـال علـى التناسـل، و أنّ زيـادة السـكان تمثـل السـبب الأساسـي لرقـي الشـعوب و تطورهـا، فزيـادة السـكان تـدفع الإنسـان إلـى الأمـام، وأن الضـغط السـكاني فـي رأيـه يمثـل عـاملا ايجابيـا، لأنّـه يحـث أكثـر علـى اسـتغلال المـوارد المتاحـة[6]. لكـن هـذه الجهـود لـم تخلـو هـي الأخـرى مـن العيـوب، و التّـي كـان أبرزها:

**أ•** سـعيه الحثيـث لصـياغة نظريـة سـكانية، تنسـجم مـع نظريتـه العامـة حـول التطـور البيولـوجي، غيـر أنّ الحيـاة لا تنطـوي علـى ذلـك الترابط الجميـل الـذي كشـفه فـي نظريتـه، و أنّـه إذا كـان هنـاك تنافر بين التناسل و النضج الذاتي للأفراد فهو ذو أهمية قليلة بكل تأكيد.

---

5 - خليل عبد الهادي البدو، مرجع سابق، ص27-28.

6 - طارق السيد، مرجع سابق، ص84.

**ب•** حرصه على تدعيم نظريته بشواهد واقعية، لم تكن كافية و لا ممثلة لجميع الاحتمالات أو شاملة للعوامل المختلفة المتداخلة التّي تؤثر على السلوك الإنجابي، مغفلا في ذلك عددا آخر من الشواهد التّي تدحض نظريته، و من ذلك مثلا أنّ معدلات الخصوبة المتناقصة ليست نتاجا للتغيرات الفسيولوجية فقط، بقدر ما تكون أيضا نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل كالالتجاء لاستخدام وسائل حديثة لتحديد النسل، أو النظام القيمي و الثقافي السائد في المجتمع.....

**ت•** تأثير تعليم المرأة في قدرتها على التناسل و إن كان حقيقة أكدّتها العديد من الدراسات، إلاّ أنّ ه يبقى هناك عوامل اجتماعية عديدة غير التعليم تؤثر في القدرة على التناسل، ذلك أنّ المرأة التّي نالت قسطا كبيرا من التعليم، لا بد أن تكون قد تجاوزت أهم فترات خصوبتها و التّي تمتد عادة ما بين 20-30سنة[7].

**4- نظرية كوراد جيني(1884-1965):** يعد " كوراد جينيGini Corrad " مفكر اجتماعي ايطالي، اهتم بدراسة التغير السكاني باعتباره مؤشرا على التغير الساري في المجتمع، في كتابه أثر السكان في تطور المجتمع الصادر سنة 1912، و الذي أوضح وجود علاقة بين تطور المجتمع، و بين ما يحدث فيه من متغيرات مرحلية في النمو السكاني، أي أنّه كان يرى أنّ العامل السكاني يعمل بصورة ما على تغير طبيعة السكان، و هي التغيرات التّي تختلف بصورة أو بأخرى باختلاف الطبقات الاجتماعية فيه.

و قد بني تصوره هذا على أساس أنّ التطور الاجتماعي يشبه حياة الفرد، و الذي يبتدئها بمرحلة النشأة ثم مرحلة التقدم ليدركها التدهور في الأخير، مفترضا أنّه في كل مرحلة من مراحل تطور و تغير المجتمع، تتميز بخصائص محددة تميز نمو السكان و نتائج تترتب على هذا النمو، و تؤثر في مختلف جوانب المجتمع البيولوجية، المورفولوجية و الاقتصادية و غيرها، حيث تتميز المجتمعات في مرحلة تكوينها و نشأتها بزيادة الخصوبة، أمّا في المرحلة الثانية و هي مرحلة التقدم فإنّ المجتمع يكون مكتظا بالسكان لذلك تبدأ الهجرة من هذا

7 - علي عبد الرزاق جبلي، علم اجتماع السكان، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2011، ص97.

المجتمع[8]. غير أنّ هذا التصور الذي صاغه " كوراد جيني" لم يخلو هو الآخر من الانتقادات و التحفظات التّي سيقت ضدها، و التّي من بينها نذكر مايلي:

**أ•** يعتقد جيني بوجود قوة طبيعية تحدد عدد السكان بالزيادة أو بالنقصان، و تظهر هذه القوة في العمليات البيولوجية، و نقص القدرة على التناسل، و قد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة خطأ التفسير استناد إلى طبيعة غامضة لا يستطيع الإنسان التحكم فيها و ضبطها.

**ب•** استمد جيني رؤيته فيما يتعلق باتجاه الزيادة السكانية أو نقصها، انطلاقا من دراسته لتاريخ بعض الأمم القديمة كاليونان و الرومان، و هو ما لا يمكن اعتباره تعميما باعتبار أن بعض الشعوب الأخرى كالهند و الصين كانت لها اتجاهات مغايرة لذلك.

**ت•** تتسم بعض المجتمعات بدرجات عالية من الخصوبة، لا يمكن التمييز فيها بين خصوبة طبقة اجتماعية عن طبقة أخرى، كما هو الحال بالنسبة للمجتمعين الصيني و الهندي.

**ث•** العوامل التّي تؤدي إلى التقليل من النمو السكاني عديدة و ليست هي فقط الحروب و الهجرة، و من بينها نجد الإجهاض، الأوبئة، المجاعات، ارتفاع نسبة الوفيات[9].....و هي عوامل لم يلتفت لها جيني، و قد يؤثر ظهورها في سير تطور المجتمع في اتجاه يختلف كليا عن الاتجاه الذي تصوره.

---

8 – منير عبد الله كرادشة، علم السكان، الديمغرافيا الاجتماعية، عالم الكتاب الحديث، عمان، الأردن، 2009،ص 44-47.

9 – فراس البياتي، مرجع سابق، ص63.